

ملحوظات عامة على النيل ومصر وأصل سكانها

يا خليلي ذكراي بسعدي وأسعداني بذكر سكان ربعي
فأتني أن أرى السديار بعيني فلعلني أرى السديار بسمعي

إعلم أن مصر واد غريب الآثار عجيب الأخبار يحده شمالاً البحر الأبيض المتوسط وجنوباً بلاد السودان وشرقاً جبال العرب وغرباً جبال برقه أوليبيا اللذان يكونان متقاربين جداً من أسوان وإسنا حتى يكادا أن يتماسا ثم يفرجان قليلاً قليلاً وكلما إمتدا إلى الشمال إنفرجا عن بعضهما إلى أن يحاذيا القاهرة فيتجه أحدهما إلى الشمال الشرقي حتى ينتهي بمضبات الشام ويحبال لبنان ويتجه الآخر إلى الشمال الغربي حتى ينتهي بجبال المغرب والنيل ينساب بينهما ويتشعب بأسافل الأرض فيروي جميع مصر ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

وهو يتكون من فرعين عظيمين أحدهما البحر الأبيض وهو أطولهما فيأتي من الأمطار الدورية المنهمرة على الجبال الشاخنة المحيطة بوسط أفريقيا من الجنوب والشرق فتنتج مياهه على هيئة سيول متدفقة تجتمع مع بعضها في بطن الوادي وتصير بحيرات متسلسلة متواصلة يعلو بعضها بعضاً ثم يتجه إلى الشمال وتمده الأنهار بمياهها من اليمين والشمال ومتى جاوز هذا الإقليم مرّ بوسط تلك الفدافد والبيداء واخترق كثيراً من الأحراش والغابات وقطع البطحاء والمستنقعات ثم يخرج منها و يميل قليلاً إلى الشرق كأنه يقصد البحر الأحمر فتصده الجبال والصخور ويستقيم ثانياً حتى يجتمع بالفرع الثاني وهو البحر الأزرق عند قرية أم درمان بالقرب من الخرطوم ثم يتجه إلى الشمال فيلتقي مع نهر تكازا أو أتبرا بالقرب من قرية الدامر وهذان النهران يأتيان من بلاد الحبشة فيصير بهما نهراً عظيماً متلاطماً بالأمواج وإلى هنا يسمى بالنيل الأعلى ثم ينعطف إلى الغرب وينصدم في سهول البادية الكبرى ويميل إلى الجنوب ثم إلى الشمال ويعرج في سيره تارة إلى الشرق وأخرى إلى الغرب ويمر بجملته جنادل نعرف بالشلالات وآخرها شلال أسوان وإلى هنا يسمى بالنيل الأوسط ثم يمر بأرض مصر ويتفرع عند القناطر الخيرية إلى فرعين عظيمين أحدهما يتجه إلى الشمال الشرقي ويصب في البحر الأبيض المتوسط بالقرب من

ثغر دمياط ويسمى فرع دمياط والثاني يتجه إلى الشمال الغربي ويصب في البحر الأبيض المتوسط أيضاً بالقرب من ثغر رشيد ويسمى فرع رشيد. وكان له فيما سلف سبعة أفرع وسبعة مصبات وهي

أولها الفرع البويطي ويعرف الآن بترعة أبومنجا وكان يصب في البحر بالقرب من قرية الطينة أو الفرما ومكانه ظاهر إلى الآن.

ثانيها الفرع الطانيكي ويعرف الآن ببحر موسى.

ثالثها الفرع المنديسي ويعرف الآن ببحر أشمون الرمان ويصب في بحيرة المنزلة.

رابعها الفرع الفاطمي وهو المعروف الآن بفرع دمياط.

خامسها فرع السيني ويعرف الآن بترعة مليح.

سادسها الفرع البليبيتي وكان جزء من فرع رشيد يخرج من الفرع الكانوي الآتي ذكره بالقرب من بلدة الرحمانية بمديرية البحيرة ويصب في البحر الأبيض المتوسط.

سابعها الفرع الكانوي ويسمى أيضاً المرقليوتيكي أو النقراتيكي وهو عبارة عن فرع رشيد ومبدؤه رأس مثلث الدلتا أو روضة البحرين فكان يجري حتى محاذي بلدة الرحمانية ويتفرع إلى فرعين أحدهما الفرع البليبيتي وقد مر ذكره والثاني يتجه إلى الشمال الغربي حتى يدنو من جبال ليبيا ويصب في البحر الأبيض المتوسط وبعض مجراه يعرف الآن باسم ترعة المحمودية وأما باقيه فقد ردم وصار أرضاً زراعية.

ولهذا النيل المبارك في كل سنة منظران متنوعان جداً.

أحدهم زمن التحريق فتراه في ذلك الوقت وقد انحصر بين ساحليه وقل جريانه وتغير ماؤه وتخرج في سيره ورسب طميه وراق من الأكدار وظهرت به جزائر قحلاء شوقها حرارة الشمس مراراً بجمرتها أما الصعيد وما أدراك ما الصعيد فينضب ماؤه ويصير أرضاً جرزاً وصعباً أقفر وتنش الترع وتشتد به حرارة الفيظ ويجف العود الأخضر وتعصف الرياح الغربية الهابة من الصحراء وتعرف بريح السموم أو الخماسين فيقتم الغبار ويلق التراب بورق الأشجار ووجوه المارة ويبقى الأمر على ذلك والناس تشرب من الآبار والسواقي حتى يسعفها النيل بفيضه العميم أو تهب ريح الشمال فتطفي لطي ذلك الجحيم.

ثانيهما زمن الزيادة أو الفيض وابتدئ بتغير لون الماء إلى الخضرة فتصير غروية كابية اللون مائلة إلى الملوحة مغنثية مضرة بالصحة بعدما كانت بالأمس صافية لذيدة سائغة للشاربين وسبب ذلك أن مياه الفيض تطرد أمامها ماء المستنقعات الراكدة المتخلفة من العام الماضي في جنوب بلاد السودان بعدما أذابت فيها الأعشاب والغناء وبعض عظام الحيوانات فتؤثر على الصحة وتحدث ألماً شديداً في المثانة ولا يمكن الإنسان أن يتخلص من هذا الضرر إلا بغليها أو ترشيحها ثم يأخذ النيل بعد ثلاثة أو أربعة أيام في الزيادة والحمرة وكلما زاد ماؤه زادت حمرة حتى يتخيل للرائي أنه بحر من دم كدر مركز بالطمي فعند ذلك يجمد ترويقه وفي ذلك الوقت يكون منظره أبحج المناظر وأشرح للخواطر ثم تهجم جيوشه على السواحل لا يمنعها عنها مانع ولا يدفعها دافع فتسحلها سحلاً وتزحف جنوده الميمونة الطلعة على تلك الأراضي القحلة فنلقحها بالخيرات والبركات وتبيد منها الوحشة والحزن فما تسمع إلا دوي وقع الحروف وهدير القناطر وعجيج الأمواج وتصفيق المياه وخرير السدود وتغريد الطيور مبشرة بقدوم الهناء وهمس حركات الأسماك الفضية اللون وصرير الحشرات والزواحف وكأن الحياة دبّت ثانية في كل ذي روح فتنشط الناس وتدرج السوانم وتدب الدواب وتأخذ الحكومة في التدبير لصد صولنه ورد جماعه وإدخاله تحت عادل قانونها فيدوم على ذلك برهة وكأن أيامه من حسننها أعراس ثم يرجع القهقري رويداً رويداً ويغادر الأرض بعدما ترك عليها من فيض إحسانه طبقة لطيفة من الطمي المخصب لها ويلازم ساحليه فيلبس أرض مصر حلتها السندسية ذات النفحة المسكية مطرزة بالأزهار ومزررة بالأزرار وغير ذلك مما هو معلوم لدينا ومنبوت أمر ما لبنا وما نسب للمرحوم رفاعه بك.

كلفت بوصل النيل مصر فأنتجت من يانع الأثمار كل ربيع
لو واصل النيل الصحاري أنجبت ولكنها ألفت وصال الريح

وبالجملمة والتفصيل لولا هذا النيل وماؤه الفيض لكانت أرض مصر سجنأ عميقاً لا تصلح للزرع ولا للسكن وعلى ذلك إتفق علماء الآثار الباحثون عن أحوال مصر وتواريخها أن هذا الوادي كان في مبدأ أمره خليجاً يغمره ماء البحر الملح فتسلطت عليه عوامل النيل ورفعت من قدره ما يخفض وطمته بطميهما السنوي شيئاً فشيئاً حتى صار أرضاً زراعية طيبة مباركة وقال هيرودوت المؤرخ اليوناني الشهير أن مصر هدية من النيل عندما أخبرته الكهنة أنه في مدة إستيلاء الملك منا على منصة الحكم بديار مصر كانت أمواج البحر الملح تضرب في صخور

الجبل الشرقي والغربي حيث أهرام الجيزة الآن وأن باقي الوادي كان مستقراً وأراضي مستعجرة مضرة بالصحة.

وقد ظهر الآن بالحساب أن النيل يزيد في عرض أرض الدلتا أو روضة البحرين في كل سنة متراً واحداً حتى بلغ الآن ثلاثة وعشرين ألف كيلو متر مربع حدث من الطمي الذي جلب النيل معه حبة من أقاصي بلاد السودان ووسط أفريقيا فينتج من ذلك أنه لا بد أن يكون مكث سبعمائة وأربعين قرناً أو أربعة وسبعين ألف سنة حتى بلغ هذا المقدار.

ولما كانت هذه المدة بعيدة جداً عن التصور العقلي قال بعض المؤرخين أن مياه النيل كانت فيما سلف أغزر طمياً وأكثر منها الآن وأن أرض مصر تم تكوينها في مدة أقل بكثير من المدة المذكورة وأن ما أخبرت به كهنة مصر هيروودوت المؤرخ صحيح لا مرأى فيه ولا فرية لأنهم أعلم بأخبار أرضهم ممن سواهم.

وقال بعضهم أن أرض الدلتا تم تكوينها وصارت أرضاً صالحة للزراعة قبل حكم منامدة طويلة ولا عبرة بما قالته الكهنة لذلك المؤرخ لأن ذلك دعوى من غير دليل ومن أين أتى لهم أنها كانت لا تصلح للزراعة والسكن قبل إستيلاء هذا الملك وعلى كل حال كان الواجب عليهم أن يقولوا له أن النيل يزيد كل سنة في أرض مصر والناس سكنتها بالتدريج.

أما أصل المصريين فقد وقع فيه إختلاف كبيراً أيضاً فزعم قدماء المؤرخين من الأفرنج أن سكان هذا الوادي أتوا إليه من أفريقيا من شاطئ النيل الأوسط أي من بلاد أثيوبيا فرحفوا إليه شيئاً فشيئاً تابعين مجرى هذا النهر إلى أن وصلوا البحر الأبيض المتوسط ثم إنتشروا في جميع بقاعه وحزم أهل أثيوبيا أن مصر هي أحد نزلاتهم ومستعمراتهم كما أن أرضها من أرضهم نقلها النيل بشدة جريانه وفيضه السنوي وسكانها قبيلة منهم واحتجبتوا بشدة المشاهدة الكائنة بين العوائد والأخلاق والقوانين التي كانت عند كليهما وقالوا أنهم تعلموا الكتابة منا كما علمناهم كيفية تحنيط الأموات التي كانت مستعملة عندنا وأن كهنتهم تعلمت العلوم وحفظ الأسرار من كهنتنا حتى أن ملابس ملوكهم ورنك تيجانهم هي عين ملابس ملوكنا وبالجملة فهم أولادنا فضلاً عن أنهم تلاميذنا ثم نابذونا في الحرف والصنائع وخاربونا ونادوا علينا بما تعلقوا منا فهم كما قال الشاعر:

أعلمته الرماية كل يوم فلما إشتد ساعده رماني
وكم علمته نظم القوافي فلما قال قافية هجاني

وما زالت هذه الروايات متداولة بين المؤرخين حتى ظهر الآن بطلان هذه الدعوى وعكس الموضوع لأنه ظهر للباحثين أن في مادة العائلة الثانية عشرة هاجر قوم من مصر إلى بلاد أتيوبيا وعمروها فصارت تابعة لمصر وأن التمدن المصري صعد من الشمال إلى الجنوب بدل أن ينحدر مع النيل من الجنوب إلى الشمال سيما وقد نصت التوراة أن مصرام بن حام سكن بأولاده مصر ومن تأمل في التماثيل القديمة المصرية المحفوظة بدار التحف علم يقيناً أن هذه الأمة من الجنس الأبيض القوقازي القاطن بآسيا وأوروبا لا من جنس الزنوج وأن لتركيب لغتهم مشابهة قوية بتركيب لغة أهل آسيا وأن كثيراً من أصل لغتهم مشتق من اللغة العبرانية الإيرامية كما أن الضمائر المتصلة والمنفصلة في كلتا اللغتين أصلهما واحد وخالصة القول أن أصل المصريين من الجنس السامي أتوا إلى هذا الوادي من برزخ السويس وربما وجدوا به طائفة من الزنوج فرت أمامهم صوب الجنوب ومن البديهي أن النيل كان في تلك الحقبة العصرية يمد ويجزر ويغير مجراه كل سنة بدون أن يروي شيئاً من أرضه.

وكان بعض الوجه العري مغموراً بمياه البحر الملح يتخلله جزائر تثبت البردي والأقحوان والقصب الفارسي فضرورة المعيشة أوجت هؤلاء النازلين إلى ضبط ميامه بحفر الترع والخلجان وإقامة الجسور وحرث الأرض وزرعها وبتمادي الأزمان صاروا قبائل وعشائر كثيرة لكل واحد منها رئيس ربما مكثوا على ذلك نحو الثلاثة آلاف سنة أو أكثر فتكونت منهم إيلات أو ممالك صغيرة لكل واحدة منها قوانين وديانة ومعبودات خاصة ثم إنحازت تلك الممالك إلى بعضها فتكون منها مملكتان كبيرتان إحداهما بالصعيد والأخرى بالبحيرة ولما قامت الدولة الفرعونية الأولى وضمتها إلى بعضهما بقيت تلك الإيلات الصغيرة ممتازة عن بعضها عبارة عن مديريات أو أقسام لكل واحدة مدن وقرى وأراض وجملة مراكز خاصة بما أما عاصمة كل قسم فكانت مركزاً للعبادة الخاصة به وللأحكام الملكية والحربية التي يباشرها الحاكم الوارث له المعتمد من لدن الملك وكان أهالي كل قسم تدفع من نفس نتاج الأرض خراجاً سنوياً إلى الملك كما أنهم كانوا خاضعين لمزاولة أشغال المصالح العامة بدون أجر ولا مقابل أما عدد المديريات أو الأقسام فكان يختلف باختلاف الأحكام والأزمان فكان ستة وثلاثين أيام ديودور الصقلي المؤرخ وكان أيام غيره أربعة وأربعين نصفها بالصعيد ونصفها بالبحيرة والله أعلم.